في بيتنا معوق

١٧/ ٣/ ١٤٣٧هـ

قال بعضُ أهل العلم: كنا في جنازة، وحضرها شيخ يقال له: أبوبكر الضرير، وبين يَدي الجنازةِ صبيان يبكون، ويقولون: من لنا بعدك يا أبه؟ فلما سمعهم أبوبكر يقولون ذلك، قال: الذي كان لأبي بكر الضرير! فسألتُه عن سبب ذلك؟ فقال: كان أبي من فقراء المسلمين، وكان يبيع الخزف، وكانت لي أختٌ أَسنّ منّي، وكنتُ قد أُتِيَ عليّ في بصري، فانتبهتُ ليلة، فسمعت أبي يقول لأمي: أنا شيخٌ كبير! وأنت أيضًا قد كبرتِ، وضعفتِ! وقد قربَ منّا ما بَعُد، وهذه الصبيّة تَعيش بصحّة جسمها، وتخدِم الناس، وهذا الصبيّ ضرير! قطعة لحم، ليت شعري! ما يكون منه؟ ثم بَكَيا، وداما على ذلك وقتًا طويلًا من الليل، فأحزَنَا قلبي، فأصبحتُ، ومضيتُ إلى المكتب -على عادتي- فما لبثتُ إلا يسيرًا، إذ جاء غلامٌ للخليفة، فقال للمعلِّم: السيدةُ تسلّم عليك، وتقول لك: قد أقبل شهرُ رمضان، وأريدُ منك صبيًّا دون البلوغ، حسنَ القراءة، طيبَ الصوت، يصلي بنا التراويح.

فقال: عندي مَن هذه صفتُه، وهو مكفوف البصر، ثم أمرني بالقيام

معه، فأخذ الرسولُ بيدي، وسِرْنا حتى وصلنا الدارَ، فاستأذنَ لي، فأذنتِ السيدةُ لي بالدخول، فدخلتُ، وسلّمت، واستفتحتُ، وقرأتُ، بسم الله الرحمن الرحيم، فبكتْ، واسترسلتُ في القراءة، فزاد بكاؤها، وقالت: ما سمعتُ قط مثل هذه التلاوة، فرقّ قلبي، فبكيتُ، فسألتني عن سبب ذلك؟ فأخبرتها بما سمعت من أبي؛ فقالت: يا بني، يكون ذلك ممّن لم يكن في حساب أبيك، ثم أمرتْ لي بألف دينار، فقالت: هذه يتّجر بها أبوك، ويجهّز أختَك، وقد أمرتُ لك بإجراء ثلاثين دينارًا في كل شهر، إدرارًا، وأمرتْ لي بكسوة وبغلة مسرّجةٍ ملجّمة، وسرج محلي، فهو سبب قولي جوابًا للصبيان عندما قالوا: من لنا بعدك يا أبه[1].هذا الأعمى الذي مضت قصّتُه هو نموذجٌ لبعض حالات الإعاقة، أو ما يسمى ذوي الاحتياجات الخاصة التي توجد في بعض البيوت، سواء كانت هذه الإعاقة عمى، أو صممًا، أو إعاقة جسدية في الأطراف أو غيرها، التي عادةً ما يصاحب ولادَتَه بإحدى هذه العاهات شعورٌ عند والديه أو أحدهما بضيق الصدر، والقلق على مستقبله، والجزع من تَبِعة هذه الإعاقة.

والواقع أن الإنسان ليس له إلا خياران: إما الصبر والرضا، أو الجزع والقلق، فالأول يرتفع بإيمانه وصبره، ويرتاح قلبُه، ولسانُ حاله: هي من عند الله، وهي خِيرتُه، فسأرضى، وأُسلّم، وأما الثاني فإنما يَهبط بجزعه وقَلقِه، ويُتعب قلبَه، ويملأ صدرَه كمَدًا، ولن يجلب له ذلك شفاء أو تخلّصًا من تلك الإعاقة.

وثمة مَلحظٌ يُبصره أهلُ الإيمان، الذين قرؤوا القرآن، وتدبَّروه، حين

(١) نكث الهميان في نكت العميان (ص٣٢).

يقرؤون قولَه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة:٢١٦]، ويقرؤون قولَه تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾[النساء: ١١]، ولسان حالهم: خِيرتُك يا رب، خيرٌ من خيرتنا لأنفسنا، وقد يكون هذا المعوق أقرب لنا نفعًا في الدنيا قبل الآخرة! وهذا حقّ.

فأما في الدنيا: فكم فتَحت هذه الابتلاءاتُ لهؤلاء المعوقين وأهليهم من لذّة التعلق بالله، ومناجاته، وحسنِ الظنّ به، وانتظارِ الفرج! وكم بنَتْ هذه الابتلاءاتُ في نفوسِ أهليهم من معاني الصبرِ والاحتمال! وكم...وكم...! وأعرف بيوتًا حصل لها ما وصفتُه، وقد كانوا من قبل في غفلة، وتقصيرٍ في الفرائض، وتساهُلٍ في بعض المحرمات، فجاء هذا المولودُ المعوق ليَكسرهم، وينبّههم من غفلةٍ ألمت بهم، وسببًا في حصول لذاتٍ قلبية لم تكن لولا ما قدّره اللهُ من هذا الابتلاء.

وأما في الآخرة: فهذه الابتلاءاتُ لهؤلاء المعوقين وأهليهم -مع الصبر والاحتساب- سببٌ في رفعة درجاتهم عند الله تعالى، رفعةً قد لا تبلغها أعمالُهم، كما في الأثر: «**إن العبد إذا سبقتْ له من الله عَزَّوَجَلَّ منزلةٌ لم يبلغها بعمله؛ ابتلاه اللهُ جل وعز في جسده، أو في ماله، أو في ولده، ثم صبّره على ذلك، حتى يبلّغه المنزلةَ التي سبقت له من الله**»[1]، ولأجل هذا المعنى قال بعضُ السلف: «**لولا مصائبُ الدنيا لقدِمْنا على الله مفاليس**»[2].

والسعيدُ مَن عاش العبوديةَ لله في السراء والضراء، ورأى مواقعَ الرحمةِ في منازل الابتلاء، وأيقن أن خِيرةَ الرحيم الرحمن خيرٌ من خيرته لنفسه، ومن لم يعش ذلك، تكّدر عيشه، وتنغصتْ حياتُه.

(١) سنن أبي داود (رقم٣٠٩٠) وفي سنده ضعف، لكن معناه صحيح.
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ١٦٤).